

## إلى دمّون

كانت السحب السوداء تغطى وجه السماء وهى تسير ثقيلة فى ببطء، وتنوء كأنها تريد أن تهبط إلى الأرض. ووقف فتیان ينزلون أحمالاً عن ظهور جيادهم ويلقونها فوق الأرض الحجرية على جانب الوادى، ولما فرغوا ذهبوا يمسحون أيديهم بأعراف خيولهم الببيضاء حتى صبغوها بلون أحمر قان من الدماء. وما كان هؤلاء الفتية غير امرئ القيس فى جماعة من أصحابه، عادوا من الصيد، فنزلوا حيث انتهى بهم السير؛ وما كانت تلك الأحمال إلا وعولاً وظباءً، قضى هؤلاء الفتیان يومهم فى صيدها، وحملوها إلى ذلك الوادى الذى اختاروه منزلاً لهم، ليقضوا به أياماً فى قصف ومرح، وشراب وطعام، حتى ينفد ما اجتمع عندهم من الصيد، ثم يسيروا ليلتمسوا لهم رزقاً جديداً من صيد آخر؛ فهكذا كان امرؤ القيس وأصحابه يقضون أيامهم لا يستقرون فى دار، ولا يقيمون فى أرض. وأقبل امرؤ القيس بعد أن انتهى من مسح يديه فى عرف فرسه، فجعل يمسح وجه الجواد برفق، ويمر بيده على ظهره وكفله، كأنه يداعبه، وكان الفرس يهز رأسه مرتاحاً، ويشم وجه صاحبه كأنه يجيبه على مداعبته.

ثم سار الهوينى ينظر حوله، ويملاً صدره من الهواء البليل، ويتغنى لنفسه بأبيات يصف فيها لذته التى كان يحسها فى حياته الطلقة، ويردد ارتياحه إلى كل ما كان يقع عليه بصره من آيات الجمال، وما كان فى نفسه من النشوة القوية التى تجرى فى دمائه. ثم جعل يتغنى بمحاسن فرسه المحبوب، وما أبلاه فى يومه من سرعة العدو والذكاء، ويصف دقة أعضائه، وجمال خلقته، ولم ينس أن يصف شعر عُرْفه الذى مسح فيه يديه مما علق بهما من دماء الصيد، حتى صار كالشيب المخضوب تسيل عليه عصارة الحناء.

ثم أخذ المطر يتساقط ويتزايد، فأسرع الفتیان إلى ظل الصخور يلجأ كل منهم إلى طرف منها ليحتمى به من المطر. وأسرع امرؤ القيس عائداً إليهم فجلس فى ظل صخرة بارزة فى جانب الوادى. واستمروا على ذلك ساعة ينظرون إلى المطر الهائل، وقد ارتسم على محياهم ظل من خيبة الأمل. فقد كانوا يطمعون فى ليلة مرحلة يقضونها فى الشراب، ويشبعون فيها من صيد اليوم بعد أيام قضوها فى شبه صوم عن الطعام، لا يأكلون إلا مما كان عندهم من اللحم المقدد الباقي من صيد الأسبوع المنصرم.

ثم تحرك فتى منهم وقال ضاحكاً: «لعلنا نطوى الليلة جيعاً كما طوينا البارحة».

فأجابه آخر: «دونك الصيد فكل منه كما تأكل السباع».

فصاح ثالث: «أليست لك أنياب حادة؟».

وعند ذلك قال امرؤ القيس ضاحكاً: «أما أنا فلا يحزنني إلا فوت الشراب والسمر ونحن هكذا متفرقون».

فصاح فتى يجيبه ضاحكاً: «يحمل كل منا زقاً يشرب منه في مكانه ونتسامر صائحين».

فنهض امرؤ القيس وخرج من مكانه وكان المطر قد خف قليلاً، وارتفع السحاب عن أطراف الأفق، وأخذ ينفرج من ناحية الشمال، وبدأت قطع زرقاء من السماء من خلاله، ونهض الفتیان خارجين من مكانهم وجعلوا يتلفتون حولهم في شيء من القلق.

قال امرؤ القيس: «وما لنا لا نقيم لأنفسنا بيتاً نجتمع فيه حول سفرة واحدة ونشترك في سمرنا وشرابنا؟».

فقال أحد أصحابه مازحاً: «هلم أيها الأمير فمر عبيدك أن يضربوا لك القبة الحمراء».

فأجاب امرؤ القيس قائلاً: «إذا لم تكن لنا قبة حمراء كانت لنا أخرى بيضاء».

وخلع ثوباً أبيض كان على كتفيه ودفعه إلى صاحبه قائلاً: «وإذا لم يكن لنا عبيد قمنا نحن بالخدمة. هلم أيها الرفاق».

ولم ينتظر من أحد جواباً، بل ذهب إلى فضاء واسع في جانب الوادي وهو يحمل في يده بعض الرماح، وجعل يركزها في الأرض

ويضع الرمال حول مراكزها. فذهب الفتیان إليه وقد أدركوا ما يقصد، فجعل كل منهم يتجه إلى ناحية فيساعد في عمل حتى ركزوا كل رماحهم وطرحوا فوقها ثيابهم الصوفية، وأخذوا يشدونها إلى أطراف الرماح بحبال من ليف النخل وأصواف الإبل. فلما اطمأنت الثياب فوق الرماح وصارت منها مظلة فسيحة، نظر امرؤ القيس إليها معجباً وقال في زهو: «أرايتم قبة خيراً من هذه؟».

فقال صاحب من أصحابه صارخاً: «فلنضرع الآن إلى مناة أن تمنع عنا هبوب الريح حتى لا ينهدم البناء الشامخ». فقال امرؤ القيس متهكماً بالآلهة مناة: «ضع نعلك في وجه مناة. لهي أعجز من أن تهدم قبتنا المتينة».

ثم ذهب إلى المكان الذي ألقى فيه الفتیان دروعهم وحمل منها ثلاثاً وأخذ يشد أطراف الحبال في حلقاتها حتى استقلت، وجعل يهزها مرتاحاً إلى متانتها وقال مباهياً: «أرايتم أوتاداً أثبت من هذه؟».

فأحاط الفتیان به معجبين وجعلوا يثنون عليه ودخلوا تحت المظلة ينظرون في جوانبها فرحين، ثم ذهبوا يحملون متاعهم ويرتبونه في أركانها، حتى هياؤا لأنفسهم فيها مجالس وثيرة وجلسوا معاً في حلقة ليستريحوا وقد احتبوا بحمائل سيوفهم.

ثم قاموا بعد حين وأخذوا يجمعون الحشائش والأعواد الجافة وأوقدوا نارًا، وما هي إلا ساعات حتى كانت رائحة الشواء تفوح وتملأ الهواء.

وكانت ليلتهم مريحة قضوها كعادتهم فى طعام وشراب وسمر إلى أن أخذهم النوم قبل الصباح.

قام امرؤ القيس فى ضحوة اليوم التالى، وكانت الأمطار قد غسّلت وجه الأرض فبدت رمالها الصفراء لامعة نظيفة، واجتمعت من جوانب الرّبى والتلال مساليل صغيرة هبطت إلى بطن الوادى فجرى منها جدول متعرج من ماء رائق يتلألأ فى قاعة الحصى المختلف الألوان، كأنه عقود من العقائق واليوافيت قد انفطرت من أسلاكها. وكانت السماء صافية زرقاء لا تشوبها سحابة ولا يحجبها ضباب، والهواء يهب رخاء بليلاً منعشاً، والشمس ترسل شعاعاً إلى الأرض الرطبة فتلمع لها كأنها تبتسم لمرآها وطلوعها عليها بعد احتجاجها. سار امرؤ القيس يجرى فى أنحاء الوادى ويتوقل فى جوانبه، ويعتلى ظهور الرّبى والكُثبان، وهو تارة يتغنى وتارة يملأ صدره من الهواء، ومرة يقف ناظرًا حوله إلى الأفق البعيد، وأخرى ينحنى إلى الأرض ليلتقط حصاة ملونة يتأملها حيناً ثم يلقى بها إلى الأرض فى غير اكتراث.

وقصد فى تجواله إلى ربوة عالية فى جانب الوادى، فأشرف منها على فضاء فسيح به بعض شجيرات قصيرة، تتخللها أبيات

مجتمعة حول خيمة عالية، قد وقف عند بابها فرس قاتم اللون مربوط إلى أحد أطنا ب الخيمة. ورأى عن بعد قطعاً من الإبل ترعى الحشائش والأشواك فى هينة واطمئنان، فعلم أن ذلك المكان منزل لبعض الشيوخ يحيط به أولاده وأهل بيته، وهم أن يهبط إلى الجانب الآخر من الربوة حتى لا يقرب من ذلك الحى الآهل، ولكنه لمح عند باب الخيمة الكبرى فتاة جالسة تمخض اللبن فى قربة معلقة فى أحد الحبال وأحس عند ما رآها فى مظهرها وحركتها شيئاً يسترعى نظره، فجلس حيث هو، وجعل يتأملها ويحاول أن يرى شيئاً من ملامحها، فلم يقدر على ذلك لبعء المسافة بينهما، وأحس ميلاً شديداً إلى الذهاب إليها، فلم يقف ليتدبر ما هو فاعل ولم يسائل نفسه عن مقصده من وراء ذهابه إليها، بل أطاع ميله الجامح ونزل على جانب الربوة ذاهباً نحو الفتاة كأن قوة خفية تدفعه إليها.

ولما صار فى الفضاء السهل الذى يؤدى إلى الخيام بصرت به الفتاة وحسبت أنه قد يكون مسافراً فى حاجة إلى معونة من طعام أو شراب، أو أنه قد يكون خائفاً يطلب جواراً، أو ضالاً يطلب هدى، أو راكباً هلكت راحلته، فجاء يلتمس مطية، فقامت مسرعة إلى داخل الخيمة فنادت فى شىء من الحدة: «يا أبا عنبسة!».

فصاح رجل من الداخل: «لبيك!».

فقال مسرعة: «جاءنا طارق فأسرع إليه».

وفيما كان الرجل يلبس ثوبه مسرعاً ليخرج للقاء الضيف، ذهبت المرأة إلى ركن الخيمة فأخذت منه بعض أوعية وجعلت تصفها وترفع عنها أغطيته لتنظر ما فيها، ثم تناولت قربة من الماء فصبت منها في وعاء مملوء إلى نصفه بالحليب، ووضعت تمرًا في صحفة واسعة من خوص النخل، وأخذت تعد من ذلك طعامًا سريعًا للضيف ريثما تأمر بعض عبيدها أن ينحر شاة لغذائه.

وأقبل امرؤ القيس حتى قرب من الخيمة فوجد الرجل واقفًا ليلقاه، وفي وجهه بشاشة يمازجها وقار وسكون.

فقال امرؤ القيس محيياً: «عمت صباحاً».

فقال الرجل: «عمت صباحاً! ومرحباً بك!».

ثم سار به نحو خيمة مجاورة فأجلسه فيها وجلس إلى جواره يحييه.

وأدرك أبو عنبسة من مظهر ضيفه أنه رجل نبيل وأنه من فتيان العرب، وشجعانهم، فقد كان جميل الهيئة حسن الوجه مديد القمامة تدل مشيته على أنه يحس شرف مكانته ويعتز بنفسه. فجعل يحدثه في حذر، ولم يحاول أن يسأله عن نفسه ولا عن قصده من زيارته، منتظراً أن يفضي الحديث بينهما إلى جلاء ذلك عفواً بغير تعمد.

وما هي إلا مدة يسيرة حتى أقبلت ربة البيت مع خادمة تتعاونان على حمل الطعام، ولما قربت من مجلس الضيف مالت وهي تضع ما في يديها وقالت بغير أن تلتفت: «مرحباً بضيفنا!».

وكان امرؤ القيس ينظر إلى المرأة منذ ظهرت له، وما كان بصره يقع عليها حتى اعتراه اضطراب، وتحرك في مكانه يريد القيام، وأرتج عليه فلم يجد مدخلا إلى الكلام، حتى ألقت تحيتها فلم يجبهها إلا بصرخة مكتومة خرجت منه قسراً وهو قائم في ارتباك واضطراب فقال: «فاطمة!».

فنظر أبو عنبسة إلى ضيفه في دهشة ولم يستطع أن يفهم سر اضطرابه وقيامه وتعجب أشد العجب عند ما سمعه ينادى امرأته باسمها! ثم نظر إلى امرأته بعد أن سمعت الضيف يناديها باسمها فرآها تنظر إليه مأخوذة ثم تتراجع إلى الوراء، وقد رفعت يديها إلى صدرها في ارتياح ظاهر، وصرخت صرخة أخرى مكتومة قائلة: «امرؤ القيس!».

وكان أبو عنبسة قد عرف كما عرف العرب قصة امرئ القيس وحب لفاطمة وخروج أبيها من منازلها في بنى أسد خوفاً من العار؛ ولكنه تزوج الفتاة مع ذلك منذ سنوات لما عرف عنها من عفة وكمال وما اشتهرت به من جمال وعقل، ولما كان لأبيها من شرف وفضل بين شيوخ كندة.

وكانت حياته في تلك السنوات حياة هنيئة، إذ كانت فاطمة زوجة كاملة لم يجد منها إلا كل ما يحب الزوج أن يجده في زوجته. ولكنه عندما عرف أن ضيفه هو امرؤ القيس الذي كان يهوى امرأته لم يلبث أن ثارت نفسه وملأت الغيرة قلبه وقام واثباً

فى غضب ينظر تارة إلى الضيف وتارة إلى امرأته، وقد عقل الاضطراب السنة الثالثة فوقفوا مبهورتين ينظر بعضهم إلى بعض فى وجوم وارتباك.

ولم يطل الموقف بل كان موقف لحظة قصيرة، كانت على قصرها مثل دهر طويل؛ جالت فيها المناظر سريعة فى ذهن كل منهم، فاستعرض فيها ذكريات السنوات فى مثل لمح البرق. ولم يقطع ذلك الموقف المرتبك إلا امرؤ القيس فإنه اندفع مسرعاً خارجاً من الخيمة وسار يعدو كأنه يريد النجاة من عدو يلاحقه، تاركاً الزوجين واقفين ينظر أحدهما إلى الآخر فى دهشة وحيرة.

ولم يتكلم أبو عنبسة بعد ذلك بلفظ بل وقف لحظة ينظر فى آثار الضيف الذاهب، فرأى من اضطرابه فى مشيته وعنف حركته ما جعله ينسى غيرته وثورته، ثم لانت نفسه فجأة وأحس لذلك الرجل الغريب رحمة وعطفاً، فركب فرسه وعدا فى أثره مسرعاً؛ أما فاطمة فقد ذهبت إلى خيمتها فما كادت تدخلها حتى مادت بها الأرض وخرت مكبة على وجهها وغابت عن وعيها.

أدرك أبو عنبسة امرأ القيس قبل أن يعلو إلى جانب الوادى، فوقف ونظر نحوه جامداً فقال له الرجل: «إلى أين يا أبا وهب؟».

فقال امرؤ القيس: «إلى حيث كنت».

فقال أبو عنبسة: «عزمت عليك إلا بقيت معنا حتى نؤدى لك ما ينبغى من القرى».

فقال امرؤ القيس ولا يزال جامداً: «ليس إلى هذا من سبيل». فعاود الرجل قائلاً: «لقد علمت ما كان بينكما. ولست أخشاك على أهلى فأنا مطمئن إلى...».

فلم يصبر امرؤ القيس حتى يتم الرجل قوله بل قاطعه قائلاً فى جفاء: «لقد كان ما كان وانقضى. لا تعد ذكره فلست اليوم ما كنت بالأمس. نعم، كنت أهواها. ولكنى اليوم لا أعرف الحب. لا أعرف شيئاً إلا الخمر واللهو، ولا أحب أن أذكر ماضى أيامى. أنا منفى من أبى وأهلى. وأنا كذلك منفى من نفسى. لقد دفنت الماضى عامداً، وويل لمن يحفر حفرة وينبشه، اذهب عنى فإنى لا آمن عليك منى... ولا آمن من نفسى على نفسى».

ثم سار فى خطى ثقيلة مترنحة وقصد إلى جانب الوادى فذهب الرجل وراءه وقال متوسلاً: «ولكن إلى أين يا أبا وهب؟».

فوقف امرؤ القيس ونظر إليه وقد لان جموده قليلاً وقال بصوت ضعيف: «لست أذكى يا زوج فاطمة. قل لى كيف أسميك؟».

فقال الرجل: «أنا أبو عنبسة جابر بن يحيى الثعلبى».

فقال امرؤ القيس فى حزن: «عد غير مذموم يا أبا عنبسة. سأذهب إلى حيث كنت هائماً فى الأرض. لست أحب أن ترثى لى فإنى لا أتحمل أن يرحمنى أحد».

وصمت لحظة ثم تغير مظهره وبدا عليه كأنه يتحفز للنضال، وقال بصوت غير متردد: «سأذهب إلى منازل باليمن،

سأذهب إلى جبل دّمون. هناك الخمر وهناك الصيد وهناك صاحباتي :  
هند، والرباب، وسلمى، وغيرهن كثيرات. لست أعبأ بالأشباح.  
ما فاطمة إلا شبح خيال. هي خيال لا تراه إلا في الذكرى عند منزل  
دارس أو طلل بال». ثم جعل يقهقه في ضحكة جوفاء مخيفة.  
ووقف عن الكلام لحظة وهو ينظر إلى الرجل في حقد، ثم قال  
في حدة غاضبة: «اذهب عنى لا أبا لك فإنى لا آمن نفسى عليك».  
ومضى مسرعاً يصعد فى الربوة ويغرز قدميه فى الرمال  
وينزعهما فى عنف. ووقف أبو عنبرة ينظر فى أعقابه حتى انحدر  
إلى الجانب الآخر من الوادى وغاب عن عينيه، ثم مضى حزيناً  
عائداً نحو بيته.

\*\*\*